سلسلة زاد المؤمن والمؤمنة ٩

أسباب رقة القلب

تأليف
د. عبد العزيز بن داود الفايز

الناشر
دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة - المدينة المنورة
جوال: ٠٥٤٤٥٩٩١٠٠

سلسلة زاد المؤمن والمؤمنة ٩

أسباب رقة القلب

تأليف
د. عبد العزيز بن داود الفايز

الناشر
دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة - المدينة المنورة
جوال: ٠٥٤٤٥٩٩١٠٠

ⓒ عبدالعزيز داود الفايز ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفايز ، عبدالعزيز داود

اسباب رقة القلب / عبدالعزيز داود الفايز - الرياض ، ١٤٣١هـ

٣٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٥-٥٩٤٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٢ ١٤٣١/٧٨٦٩

رقم الايداع: ١٤٣١/٧٨٦٩

ردمك: ٥-٥٩٤٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد توزيعه مجاناً

بعد أخذ الإذن من المؤلف

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمَده ونستعينه ونستغفِره، ونعوذ بالله من شرورِ أنفُسِنا ومِن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهَد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وصفيّه وخليلُه، صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آلِه وصحبه، ومن سار على طريقته ونهجِه، وعنَّا معهم بمنِّه وعفوِه وكرمِه.

اعلَم -أخي القارئَ الكريم- أنَّ اللهَ تعالى خلقنا لغايةٍ عظيمة وحكمةٍ جليلةٍ، ألا وهي عبادتُه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال عزّ مِن قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٥].

ولكن لا بدَّ أن تعلمَ أيضًا أنّك لن تحقِّقَ بجوارِحك هذه العبوديةَ التي أمر الله بها إلا إذا سعيتَ في صلاح قلبِك الذي هو مَلِك الأعضاء، كما قال النبيّ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صلَحت صلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب**»[1].

فإذا صلَح القلب صلَحت سائرُ الجوارح، فقام اللسانُ بالدَّعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنةِ والأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكرِ وقراءةِ القرآن والدعاءِ والذكر والإصلاحِ بين الناسِ وكفِّ الأذى، وتجنّب الكذبَ والغيبةَ والنّميمةَ والسبَّ واللعنَ والشتمَ والقذفَ وسائرَ الآفاتِ؛ لأنَّ القلبَ الصحيحَ السليمَ أصدَر له الأوامر بذلك. وكذلك فإنَّ البصرَ حينها لا ينظر إلى ما حرَّم الله النظرَ إليه، سواء كان مباشرةً أو عبرَ الوسائل المختلفةِ؛ مثل القنوات الفضائية الهابطة، والمواقع السيئة على شبكة الإنترنت، والصور الفاضحة التي يتمّ تبادلها عبر أجهزة الهاتف الجوال، وغير ذلك من الوسائل التي تمرِض القلبَ والعياذ بالله؛ لأنَّ العبدَ يتأثّر قلبُه بالمعاصي، كما ورد في الحديث الصحيح أنّ النبيّ ﷺ قال: «**تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على**

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

أبيضَ مثلَ الصفا، فلا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخرُ أسودُ مربادًّا كالكوز مجخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكِر منكرًا إلا ما أُشرِب من هواه»[1]، نسأل الله السلامةَ والعافية.

وإذا مات القلبُ هلكَ صاحبه والعياذ بالله، إلا أن يتداركَه الله برحمةٍ من عندِه.

واعلموا -يا رعاكم الله- أنّه لا نجاةَ لنا جميعًا يومَ القيامة إلا إذا أتينا المولى وقابَلناه سبحانه وتعالى بقلوبٍ سليمةٍ وأفئدةٍ صافيةٍ نقيّة، فعلينا إذَن أن نسعَى لحياةِ قلوبنا وسلامتِها، وعلينا أن نعملَ جاهدين لرقّتها وطهارتها وصفائها، ومعالجةِ كلِّ فسادٍ يعتريها، وإزالةِ كلِّ قَسوةٍ تعلوها، فالله جلّ وعلا يقول عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

وحيث إنّه لا نجاةَ يومَ القيامة، بل لا سلامةَ في الدنيا والآخرة إلا إذا صلَحت القلوبُ وسلِمت من سائرِ الأمراضِ مثلَ الشركِ والنفاق والعُجب والكِبر والاغترارِ بالدنيا والتعلّق بها ونسيانِ الآخرة والمصير الذي سوف نصير إليه جميعًا؛ فقد أحببتُ أن أذكِّر نفسي وإخواني برسالةٍ

(١) رواه مسلم (١٤٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

لطيفة خرَجَت من القلبِ؛ لعلَّها تصل إلى القلوبِ بلُطفِ ربِّ القلوبِ سبحانه وتعالى ورحمته.

فما علاجُ قسوةِ هذه القلوب؟ وكيف السبيلُ لرقّتها وخشوعِها؟

فعليك -أخي الحبيب- أن تُعنَى بقلبك غايةَ العِناية، وذلك من خِلال الأسباب التي سأذكرها، وسوف تجِد بمشيئةِ الله تعالى الثمرةَ عاجلًا غيرَ آجل. أسأل الله أن ينفع بها، ويطرَح لها القبولَ، ويجعلها في ميزان الحسنات، فما كان فيها من صوابٍ فمن الله وحدَه، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأرجو من كلِّ قارئ كريمٍ ألَّا يبخلَ علينا بتوجيهٍ كريمٍ؛ لنتمكَّن من تدارُك ما نتداركه في الطبَعات القادمةِ بإذن الله.

وقد أذنت لمن أراد طباعتها وتوزيعها احتسابًا لوجه الله تعالى، على أن يبلِغَنا بذلك وبدون تغييرٍ في الأصل.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

قاله وكتبه:

عبد العزيز بن داود الفايز

مكة المكرمة ٢٥/ ٥/ ١٤٣١هـ

جوال ٠٠٩٦٦٥٠٠٠٥٠٠٨١

فاكس ٠٠٩٦٦٢٥٦١١١١٤

السبب الأول: معرفة الله جلّ وعلا

لا شكَّ أنَّ مَن عرف الله تعالى بأسمائه الحسنَى وصفاتِه العلى فسوف يلين قلبُه ويخشَع، كيفَ لا وقد قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؟!

ولمّا كان الحبيبُ المصطفى ﷺ أعلمَ الخلق بالخالق كان أتقَى الناسِ وأخشَاهم وأخشعَهم لله سبحانه وتعالى.

ونلاحظ أنَّه كلَّما زاد علم الإنسان بالله جلّ في علاه زادَت خشيتُه ومراقبتُه لخالقه سبحانه وتعالى، وكيف لا يخشع لجبّار الأرض والسماوات الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، والذي لا يخفَى عليه دقيقٌ ولا جَليل في السماوات والأرض، بل إنّه سبحانه وتعالى يعلَم ما تُخفي الضمائر والقلوبُ، ويعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور، ويرى دبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الملساءِ في الليلةِ الظلماء.

قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

تقول عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءتِ المجادلةُ إلى النبيِّ ﷺ تكلِّمُه وأنا في ناحيةِ البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»[1].

فمن أعظمِ أسباب رقّة القلبِ وخشوعِه التعرّفُ على الله سبحانه وتعالى، وذلك مِن خلال التدبّر في آياتِه الكونيّة وآياته الشرعيّة، ومعرفةِ مدلولاتِ أسمائِه الحسنى وصفاته العلى.

* * *

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٦) واللفظ له، والبخاري تعليقًا بصيغة الجزم (٦/ ٢٦٨٩)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨).

السبب الثاني: تدَبُّر القرآن العظيم

احرصْ على تدبُّرِ كلام الله سبحانه، والوقوفِ عند آيات الوعد والوعيد، وعند آياتِ صفاتِ ربِّ العبيد، يقول تعالى مبيِّنًا أهميَّةَ التدبّر والتفكّر والتأمّل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ويقول سبحانه عن عظمة القرآن الكريم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فلماذا -يا عباد الله- لا تخشع القلوب عندما تَسمع كلامَ الله سبحانه وتعالى؟!

انظروا إلى رسول الهدى ﷺ وهو المغفورُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، كيف حاله عندما يسمع آياتِ الله؟ ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**»، قال: فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنزل؟! قال: «**إنِّي أشتهِي أن أسمَعه مِن غيري**»، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ

بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] رفعتُ رأسي فرأيتُ دموعَه ﷺ تسيل[١].

وقام ﷺ ليلةً كاملةً بآية واحدة، فعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ ليلةً فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فلمَّا أصبحَ قلتُ: يا رسولَ الله، ما زلتَ تَقرأ هذه الآيةَ حتى أصبحتَ، تركع بها وتسجد بها! قال: «**إنِّي سألتُ ربِّي عزّ وجلّ الشفاعةَ لأمّتي فأعطانيها، وهي نائلةٌ -إن شاء الله- لمن لا يشرِك بالله عزّ وجلّ شيئًا**»[٢].

نعم، قف يا عبد الله وتأمّلْ، واعلَم بأنّ هذا الكلام موجَّه إليكَ من عند الملك سبحانه وتعالى، من عند الجبّار جلّ وعلا، واعلم بأنك أنت المخاطَب به، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «لأن أقرأ سورَةً من كتاب الله بتدبُّر وتأمُّل أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآنَ كاملًا من غير تدبّر ولا تأمُّل».

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٢) ومسلم (٨٠٠).

(٢) رواه أحمد (٢١٣٢٨) بإسناد حسن.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقد تربَّى على هذا المنهجِ الرعيلُ الأوّل من صحابة المصطفى ﷺ، فلمَّا اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه قيل له في الصلاة، فقال: «**مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس**»، قالت عائشة: إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيق إذا قرأ غلبَه البكاء، وفي رواية: إذا قرأ القرآنَ لا يملك دمعَه فلو أمرتَ غير أبي بكر، وفي رواية: إنَّ أبا بكر إذا قام في مقامِك لم يسمِعِ الناس منَ البكاء فمُر عمرَ فليصلِّ، قال: «**مروه فليصلِّ**»، فعاوَدَته قال: «**مروه فيصلِّ؛ إنكن صواحبُ يوسف**»[1].

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما أدراكَ ما عمر؟! صاحب القوّة والجَأش، الشّجاع المقدام، الذي عندما أراد أن يهاجِر من مكّةَ إلى المدينة أتى عند الكعبة وقال: «من أراد أن تُرمَّل زوجتُه ويُيتِّم ولدَه فليلحقني خلفَ هذا الوادي»، فلم يتبعه أحد. لكن ما إن يَسمع كلامَ الله تعالى إلا وتذرِف عيناه، ولقد كان في خدَّيه خطّان أسوَدان مِنَ البكاءِ مِن خشية الله جلّ وعلا.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٣) ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صلّى ذاتَ يوم في مسجده، ثم ذهب إلى منزِله، ودخل في محرابه، وأخذ يصلّي، وكان يقرأ من آخر سورة الزّمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فبكى رضي الله عنه، فأتى إليه أهلُه وسألوه: ما يبكيك يرحمك الله؟! فلم يجِبهم، ولما ذهَبت تلك الليلة وأتى من الغد سألوه قالوا: ما يبكيك؟! قال: تذكَّرت يومَ القيامة وانقسامَ الناس إلى قسمين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فما أدري من أيِّ القسمين أكون!

وهذا محمد بن المنكدر -رحمه الله- أخذ يبكي في ليلةٍ من الليالي، فسأله أهلُه عن بكائه وأحضَروا صاحبًا له وسألَه، قال: تذكّرت قول الله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فبكى من معَه حتى طلع الفجر.

وكلُّنا -يا عبادَ الله- سيبدو لنا يومَ القيامة ما لم يكن بالحسبان ولم يخطُر على بال.

هكذا كانت هي حياتهم؛ لأنهم عرفوا الله تعالى حقَّ معرفته، وقدَروا الله سبحانه حقَّ قدره.

فإذا شعَرتَ -يا عبد الله- بقسوةٍ في قلبك، وإذا شعرت -يا عبد الله- بتعلّق قلبك بهذه الدنيا، وإذا قصَّرتَ في طاعة الله، وإذا تجرَّأت على معصية الله؛ فعالج ذلك بكلامِ الله جلّ وعلا، وتدبر ما حصل للأنبياء والرسُل عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، حيث دَعَوهم إلى عبادة الله وحده، ووعدوهم بالفلاحِ في الدنيا والآخرة إذا استجابوا لأمرِ الله سبحانه وتعالى، ثم انقسموا إلى قسمين:

فمنهم من استجاب لأوامِر الله سبحانه وتعالى واتَّبع ما جاءت به الرسُل، فحصلت له السلامةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة.

ومنهم من أعرضَ عن ذلك واستجابَ لهوى نفسِه والشيطان وقرناءِ السوء، فحصَلت له العقوبة في الدنيا والعذابُ في الآخرة.

فأين الفريقان؟ ذهبوا إلى خالقهم، إمّا إلى نعيم مقيمٍ، وإمّا إلى نار الجحيم والعياذ بالله، وكأنّهم ما مرّوا على الدنيا ولا حتى ساعة واحدة، ونحن على الأثر سائرون، وإلى ما صاروا إليه صائِرون، طالت الأيّام أم قصرت.

* * *

السبب الثالث: تذكُّر الموت

ومن الأمور التي ترقِّق القلوبَ وتعلِّقها بعلَّام الغيوب أن تتذكَّر الموتَ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتيت النبيَّ ﷺ عاشِرَ عَشرة، فجاء رجل من الأنصار فقال: يا نبيَّ الله، من أكيسُ الناس وأحزمُ الناس؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدُّهم استعدادًا للموت قبل نزولِ الموت، أولئك هم الأكياسُ؛ ذهَبوا بشرفِ الدنيا وكرامة الآخرة**»[1].

والرسول ﷺ أوصانا فقال: «**أكثِروا من ذِكر هادم اللّذّات**» يعني الموتَ[2]. وقال ﷺ: «**إنّي كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإنها تذكِّر الآخرة**»[3].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧) والنسائي (١٨٢٤) وابن ماجه (٤٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وصححه ابن حبان (٢٩٩٢)، والحاكم (٧٩٠٩)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٣).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٥٥) وأبو داود (٣٢٣٥، ٣٦٩٨) والترمذي (١٠٥٤) من حديث بريدة رضي الله عنه، قال الترمذي: "حديث حسن صحيح"، وصححه ابن الجارود (٨٦٣)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٤٤).

وإنَّ من يتجرَّأ على معصية الله تعالى ويتسَاهل في ذَلك هو في حقيقة أمره قد غفل عن الموتِ، ونَسي أنّه في يومٍ من الأيام سيفارق الأهلَ والأحبابَ والأصدقاء، وسيترك هذا المال، ولا يجد أمامَه إلَّا ما قدّم من الأعمال.

إنَّ الموتَ -يا عبادَ الله- حقيقةٌ قاسية مُرّة، سنواجهها جميعًا ولا بدّ، طالت الأيامُ أم قصرت، يقول رسول الله ﷺ: «**أعمارُ أمّتي بين الستين والسبعين، وأقلُّهم من يَجوز ذلك**»[1]، وأخذ ﷺ بمنكب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقال له: «**كُن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل**»[2]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصيرٍ فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسولَ الله، لو اتَّخذنا لك وِطاءً، فقال: «**ما لي**

(١) رواه الترمذي (٢٣٣١، ٣٥٥٠) وابن ماجه (٤٢٣٦) وأبو يعلى (٥٩٩٠، ٦٦٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، والحاكم (٣٥٩٨)، وهو في السلسلة الصحيحة (٧٥٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٣).

وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلَّا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها»[1].

نعم، إنَّ الموتَ سيأتي الجميعَ، سيهجم على الجميع، على الصغار والكبار، والأغنياء والفقراءِ، والملوك والمملوكين، ويقف الجميعُ مِنَ الموت موقفًا واحدًا، لا حيلةَ ولا شفاعةَ، ولا شيء يدفَع الموتَ؛ لأنّه قادِم مِن جبّار السماوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وفي الآية الأخرى يقول الله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فتذكَّر يا عبد الله، يا من تساهلتَ فقصَّرتَ في طاعة الله تعالى، يا من نظرتَ إلى الحرام وتكلَّمت بالحرام وتعدَّيت على حقوق الله سبحانه وعلى حقوق عبادِ الله، خَيراتُ الله تنزِل عليك ليلَ نهارَ ومعاصيك ترتَفع إليه ليلَ نَهار.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٢).

تذكَّر أنك في يومٍ من الأيام ستفارق هذه الدنيا، تذكَّر عندما ينظر إليك الأحبابُ والأبناء، ينظرون إليك نظَرَ الرّحمة ونظرَ الشَّفَقَة، يريدون أن ينسِئوا في أجلِك ويمدّوا في عمُرك ولو لحظةً واحدةً، ولكن هيهاتَ هيهاتَ، وصدقَ الحقّ سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

يُسرِعون لإحضار الأطبّاء، ولكن الله قدَّر الآجال، يقول المصطفى ﷺ: «**إنَّ روحَ القُدس نفثَ في روعي: إنَّ نفسًا لن تموتَ حتى تستكمِل أجَلَها وتستوعِبَ رزقها**»[1].

تذكّر ذلك يا عبد الله، وتذكَّر عندما تُحمل وتوضع على الألواح المُعَدَّة للتغسيل، وتُجَرَّد من ثيابِ الزينة وثياب الجمال التي تتفنَّن في لبسها.

تذكَّر عندما يحملونك على الأعناق كما حملتَ غيرك، ويقدِّمونك للإمامِ للصلاةِ عليك للشفاعةِ عند الله تعالى، عند العزيز الحكيم، ثم يَذهَب بك المحِبّون لك والمشفِقون عليكَ والرحماءُ بك ليضعوك في حفرةٍ مظلِمة

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وهو في صحيح الجامع (٢٠٨٥).

موحِشة، لا أنيسَ فيها ولا جليسَ، إلا رحمةَ الجليل ثمَّ ما قدَّمتَ -يا عبد الله- من صلاةٍ وصيام وصدقةٍ وإحسانٍ وذكر ودُعاء وصِلةٍ وبِرّ وغير ذلك من الباقياتِ الصالحات، يقول النبيُّ ﷺ كما في الصحيحين: «**يتبَع الميِّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقَى معه واحد، يتبعه أهلُه وماله وعملُه، فيرجع أهله وماله، ويَبقَى عمَله**»[1].

فإذا مات ابنُ آدم وحُمِل إلى قبره تبِعه ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجِع الأهلُ والأولاد الذين ربما ارتكبَ المحرَّماتِ من أجلهم، وربما جلب الحرام إلى البيت لإرضائهم، ويرجع المال الذي ربما تحايَل في كسبه، وربما تعامل بالربا والغشّ والخِداع والمكر من أجله، يرجع عندما يُوضَع في هذه الحفرة، وماذا يبقى؟ يبقى العمل معك في هذه الحفرةِ المظلمة الموحِشة.

فإذا قسا قلبك -يا عبد الله- فتذكَّر الموتَ وسكرتَه، تذكَّر القبرَ وظلمتَه ووحشتَه، وتذكّر عندما يرجع أهلُك ومحبّوك إلى الدنيا ليتقاسموا مالَك، الذي حلالُه حِساب وحرامُه عذاب، غُنمه لأولادك وورثتِك، وغُرمُه عليك، أنت الذي سوف تُسأَل عنه، أنت الذي سوفَ تحاسَب عليه.

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٢٩٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وتذكَّر عندما يأتي إليك ملَكان ويسألانك: من ربُّك؟ ومن نبيّك؟ وما دينُك؟ فإن كنتَ مطيعًا في الدنيا مستجيبًا لله تعالى ثبَّتك الله فضلًا منه وإحسانًا، كما قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وإن كانتِ الأخرى -أعاذنا الله وإياك من ذلك- فالويل ثمّ الويل.

فاحذرْ -يا عبد الله- أن تكونَ مثلَ ذلك الذي يأتي إليه في قبره رجلٌ قبيح المنظر قبيح الثياب، ويقول له: أبشر بالذي يسوؤك، فيقول: من أنت؟! فيقول: أنا عملُك الخبيث. نسأل الله السلامة والعافيةَ.

السبب الرابع: تذكُّر أهوالِ القيامةِ

ومن الأمورِ التي تساعِد على رقّة القلب أن تتذكَّر -يا عبد الله- أهوالَ القيامةِ وما فيها من الهموم والغموم والكروب.

تذكّر عندما يجمَع الله الأوَّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، الرجال والنساء، حفاةً عراة، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسولَ الله، النساء والرجالُ جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال النبيّ ﷺ: «**يا عائشةَ، الأمر أشدّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ**»[1].

وقد ورد في الصحيحين أنّ النبيّ ﷺ قال: «**يجمَع الله يومَ القيامة الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد، فيُسمِعهم الداعي وينفذُهم البصرُ، وتدنو الشمسُ، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتمِلون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترونَ ما أنتم فيه؟! ألا ترونَ ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفَع لكم إلى ربِّكم؟! فيقول بعض الناس لبعضٍ: ائتُوا آدمَ، فيأتون آدم فيقولون: يا آدَمُ، أنت أبو البشر، خَلَقَك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك، اشفَع لنا إلى ربّك،**

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٢) ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟! فيقول آدم -وتدبَّر يا من تساهلتَ بالكبائر، تدبَّر هذا الجوابَ وخُذِ العبرةَ والعِظَة-، يقول آدم: إنَّ ربِّي غَضِب اليومَ غضبًا لم يغضَب قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثلَه، وإنّه نهاني عن الشجرةِ فعصيتُه، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، -فهذا نبيّ من أنبياء الله تعالى يذكر ذنبًا واحدًا في عرصات القيامة، فما بالكم يا عبادَ الله بالذنوب العظيمة؟!-، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أوّلُ الرّسل إلى الأرض، وسمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضِب اليوم غضبًا لم يغضَب قبلَه مثلَه، ولن يغضب بعده مثلَه، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ، فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبيّ الله وخليلُه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟! فيقول لهم إبراهيم: إنَّ ربي قد غضِب اليومَ غضبًا لم يغضَب قبله مثلَه، ولا يغضب بعده مثلَه، وذكر كذباتِه، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسَى، فيأتون موسى ﷺ، فيقولون: يا موسَى، أنت رسول الله، فضَّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفَع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقول لهم موسى ﷺ: إنَّ ربّي قد غَضِب اليومَ

غضبًا لم يغضَب قبلَه مثلَه، ولن يَغضَب بعده مثلَه، وإني قتلتُ نفسًا لم أومَر بقتلِها، نفسي نفسِي، اذهبوا إلى عيسَى ﷺ، فيأتون عيسَى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلّمتَ الناس في المهدِ، وكلمة منه ألقاها إلى مريمَ وروح منه، فاشفَع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقول لهم عيسى ﷺ: إنَّ ربي قد غضِب اليوم غضبًا لم يغضب قبلَه مثلَه، ولن يغضب بعده مثلَه، ولم يذكر له ذنبًا، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمَّد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فأنطلِقُ فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربِّي، ثمّ يَفتح الله عليَّ ويُلهمني من محامده وحُسنِ الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمّد، ارفَع رأسكَ، سَل تُعطَه، اشفَع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمّتي أمّتي، فيقال: يا محمّد، أدخِلِ الجنّةَ من أمّتك مَن لا حسابَ عليه من البابِ الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شركاء الناسِ فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمَّد بيده إنَّ ما بين المصراعين من مَصاريع الجنّة لكما بين مكّةَ وهجر، أو كما بين مكّة

وبصرى»؛ ولهذا قال النبي ﷺ في أوّل هذا الحديث: «**أنا سيِّدُ الناس يومَ القيامة**»[1].

وقد أخبرنا الله جلّ وعلا عن ذلك اليومِ العصيب، وما يحصل فيه من الأهوال العظام والحوادث الجسام، ولا ينبِّئُك مثلُ خبير، ولكنّها قسوةُ القلوب.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

ويقول الله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

تذكّر -يا عبد الله- أنّه لا أحدَ ينفع غيرَه في هذا الموقف العظيم، ولو طلبَت منك والدتُك في هذه الدّنيا أيَّ أمر من الأمور مَهما غلا ومهما كان فستلبّي طلبَها مسرِعًا، ولكن يومَ القيامة كلٌّ يقول: نفسي نفسِي، حتى

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٩]، فهذا جزاء من قدَّم اللّذّةَ وقدّم الشَّهوةَ وقدّم الرغبة، قدَّم معصيةَ الله تعالى على طاعته.

ثم قال تعالى عن الصّنف الثاني: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فهذا خاف موقفه بين يدي الله تعالى، تصوَّر أنّه في يومٍ من الأيام سيمتثِل بين يدي الله، وسيخاطبه الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان، ويذكِّره بذنوبه وأخطائه ومعاصِيه.

وفي الآيات الأخرى يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

نعم يا عبدَ الله، تذكَّر يَومَ تُنشَر الدَّواوين، يومَ الفضائح، يومَ تُبلَى السرائِر، فاعلَم أنَّ هذه الأعمالَ التي تعمَلها في غَيبة عن أنظارِ الناس، في غرفتك وفي أيّ مكان، اعلَم بأنّ الله يراها، وأنّه مطَّلع عليها، يقول سبحانه

وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

واعلم -يا عبدَ الله- أنّك ستقرأ الأعمالَ التي عمِلتها بنفسِك، يقول سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

* * *

السبب الخامس: كثرةُ ذكرِ الله تعالى

صحّ عن المصطفى ﷺ أنّه قال: «**مثَلُ الذي يذكُر ربَّه والذي لا يذكُر ربَّه مثلُ الحيّ والميّت**»[1]، فإذا أكثر المسلِم من ذِكر ربِّه جلّ وعلا حصَلت له السعادةُ والطمأنينةُ التي تساعِده على القيامِ بالواجباتِ وتركِ المحرمات، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال الحبيب ﷺ مبيِّنًا عِظَمَ فضل الذكر: «**سبَق المُفرِّدون**»، قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذّاكرون الله كثيرًا والذّاكرات**»[2].

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أكثرَ من مائةِ فائدةٍ للذكر، بل إنَّ الإكثارَ من ذكر الله سبحانه وتعالى دليلٌ على محبّة العبد لربِّه، وإذا أحبَّ العبد ربَّه قدَّم طاعتَه على كلِّ أمرٍ تحبّه نفسُه وتهواه، بل يحصُل له الأنسُ بالله

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٤) ومسلم (٧٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحدَه الذي لا يعدِله لذّة ولا مُتعة؛ لأنّ الدنيا ما طابت إلا بذكر الله تعالى والقربِ منه سبحانه، نسأل الله أن يحقِّق لنا ذلك برحمتِه ولطفِه.

ومن رحمةِ الله جل وعلا بالعبادِ أن جعلَ الذِّكرَ من أيسرِ الأعمال، فالإنسانُ يستطيع أن يذكرَ ربَّه في بيته وسيّارته ومكتبِه وفي الشارع وفي ساعاتِ الانتظار، وقد قال ﷺ: «**كلِمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١)، وقال ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده في اليوم مائةَ مرّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثلَ زبَد البحر**»(٢)، وقال ﷺ: «**أحَبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبر، لا يضرُّك بأيِّهن بدأتَ**»(٣).

* * *

(١) رواه البخاري (٦٠٤٣) ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٢) ومسلم (٢٦٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

السَّبَب السادس: مطالعةُ السّيرة النبَويّة وسِيَر العلماء والصالحين

القراءةُ في سيرةِ النبيِّ ﷺ العطِرة سببٌ عظيمٌ من أسباب رقَّة القلوب، فمِن خلالها ستعرف كيف كان ﷺ يُعنَى بشأنِ القلب وسلامتِه ولينِه ورقَّته، ونرى ذلك أيضًا من خلال المواقفِ المشرِقة في حياته اليوميّة، سواءً في بيتِه مع أبنائه وبناته وزوجاتِه وخدَمه أو خارجَ بيته.

ومن ذلك: أنّه لما تُوُفِّي ابنُه إبراهيم -وكان عمرُه ثمانيةَ عشر شهرًا- دخل عليه ﷺ وإبراهيمُ يجود بنفسه، فجعلَت عينَا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسولَ الله؟! فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة**»، ثم أتبعَها بأخرى فقال ﷺ: «**إن العينَ تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيمُ لمحزنون**»[1].

ولما احتُضرت ابنةُ بنتِه نظر إليها الحبيبُ ﷺ، ففاضَت عيناه ﷺ، فقال له سَعد: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «**هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عبادِه، ولا يرحَم الله من عباده إلا الرُّحماءَ**»[2].

---

(١) رواه البخاري (١٢٤١) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٥٣٣١) ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ومواقفُه ﷺ أكثرُ من أن تُحصَر، ولنا في كلِّ موقفٍ من مواقفه أسوةٌ حسنة.

ومن أسباب رقَّة القلوب أيضًا قراءةُ سيَر الرعيلِ الأوّل وعظماء الإسلام ونماذجِه الفذّة، الذين ضربوا أروعَ الأمثلة في طهارةِ القلوب ورقَّتها وخشيَتها وتعظيمِها وإجلالها للخالِق سبحانه وتعالى.

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يُسْمِع الناسَ قراءةَ الفاتحة من بكائِه.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعاد في بيته مريضًا لما سمِع بعض الآياتِ مِن كتابِ الله.

وعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يدخل في محرابه ويَبكي ويُبْكِي أهلَه؛ لأنه قرأ آخرَ سورة الزمر، ويتذكّر انقسامَ الناس إلى قسمين: فريق سِيقُوا إلى الجنّة، وفريق سِيقُوا إلى النار.

ورحِم الله الإمام أبا حنيفة لما قال: «القراءةُ في سيَر العلماء أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقه».

ولعلَّ اللهَ تعالى أن ييسِّر لنا جمعَ شيءٍ من سِيَرهم وأخبارهم.

* * *

السبب السابع: حضور مجالس العِلم والذِّكر

حضورُ مجالس العِلم والذِّكر وملازمةُ الصالحين والأخيار من الأسباب الرئيسةِ لرقَّة القلوبِ وخشوعِها وتعلُّقها بخالقِها سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: «**ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوتِ الله، يتلون كتابَ الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وحفَّتهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عنده**»[1].

فكلُّ واحدةٍ ممّا ورد في هذا الحديث الشريف تساعِد على لينِ القَلب، فعلى سبيل المثال: إذا نزلتِ السكينةُ على القلب استطاع أن يفهَم كلامَ الله سبحانه وتعالى، ويهتمَّ بحضوره وخشوعِه وأداءِ حقوقِ الله وحقوقِ عباده، فأصبحَ القلب تقيًّا نقيًّا خاشعًا خاضعًا لفاطره وخالقِه سبحانه وتعالى.

وفي مجالس الذِكر لا مجالَ للغفلة التي هي من أعظمِ أسباب قسوةِ القلب وإعراضه عن خالقِه، فيتذكَّر المسلم في هذه المجالِس حقيقةَ الدنيا الفانيةِ وحقيقةَ الآخرةِ الباقيةِ، ويتذكّر الموتَ وسكرتَه والقبر وظلمتَه، فيستعدّ لذلك بالتوبة الصادقةِ والعمل الصالحِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى أبا موسى الأشعري قال: «ذكِّرنا ربَّنا يا أبا موسى» فيقرأ عنده[1]، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

وكان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يجمع الفقهاء كلَّ ليلة يتذاكرون الموتَ والآخرة حتى كأنّ بين أيديهم جنازةً.

فعليك -أخي المسلم، أختي المسلمة- بالحرصِ على حضورِ دروس العلم والمحاضرات والنّدوات، ففيها من الخير ما لا يعلمه إلا الله، لا سيّما في هذا الزمان الذي كثُرت فيه الملهِيات والمغريات، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله.

وعليك -أخي المسلم- بمجالسةِ الصالحين الذين يساعدونك على الوصولِ إلى ساحِل الأمان والاطمئنان عند مليكٍ مقتدِر في جنّات النعيم، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذُن سمِعت، ولا خطَر على قلبِ بشر، نسأل الله الكريم من فضله.

واستمِع إلى الوصيّة الربانيّة في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ

---

(١) رواه عبد الرزاق (٤١٧٩)، والدارمي (٣٤٩٣)، وابن حبان (٧١٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٨).

زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ولا يشكّ كلُّ عاقلٍ أنَّ الجليسَ يؤثّر على جليسه سَلبًا وإيجابًا، بل ذَكر أهلُ العلم أنَّ الإنسانَ يتأثّر بكلّ ما يُحاط به، ألا ترى رعاةَ الإبل جُفاةً ورعاةَ الأغنام بهم رقّةٌ؟! بل وتأمّل في قصّة الرجل الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، لمّا قال له العالم: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! اخرُج من بلدِك إلى البلد الفلانيّ[1]؛ لأنّه إذا بقِي في بلدِه فسوفَ يبقى على المعصيَة، وإذا خرج إلى البلدِ الآخر فسَوف يترك المعصيةَ.

فعليك -أخي الحبيب- أن تبحَث وبكلِّ جدٍّ واجتهادٍ عن هذه العُملة النادرة، واحذَر جلساءَ السوءِ؛ فإنهم سببٌ لكلِّ بلاء ومُصيبة، ويكفي أنهم من أعظم أسبابِ قَسوة القلب ونسيانِ الآخرةِ والحساب والجزاء.

نسألُك اللهم أن ترزقَنا وجميعَ المسلمين جلساءَ صالحين، يكونون عونًا لنا على طاعتك وهداك يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) قصة قاتل المائة نفس رواها مسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

الخاتمة

فالله الله -يا عبادَ الله- في العناية بالقلوبِ والرجوع لعلَّام الغيوب سبحانه وتعالى.

قفوا مع أنفسِكم وحاسبوها في هذه الدنيا حِسابًا عسيرًا؛ حتى يسهُل عليكم الحسابُ يومَ القيامةِ، وحتى تسعَدوا في الدنيا قبلَ الآخرة، راجِعوا أنفسَكم، وتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى، واعلَموا بأنَّ الله غفورٌ رحيم، ومِن رحمته أنَّه يغفِر الذنبَ، بل إنه سبحانه وتعالى يجعَل هذه الذنوبَ والمعاصيَ حسناتٍ.

قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

والله سبحانه يفرح بتوبة عبدِه أشدَّ من فرحِ رجلٍ ذهبت عنه راحلته بأرض فلاةٍ، وأيقن بالموت، واضطَجع تحت شجرةٍ، وإذا براحِلته عند

رأسِه، فقال: اللّهمّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدّة الفرح. فالله أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه مِن هذا براحِلته.

وبعد: فلقد ذكرت لك -أخي القارئ الكريم- بعض الأمور التي تساعد على لينِ القلوب ورقّتها، وقصدتُ بها تذكيرَ نفسي وإخواني المسلمين، لا سيّما في هذا الزمان الذي كثُرت فيه الملهِيات والمغرِيات والتي لها بالغُ الأثر على القلوب.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرّسالة ويجعلَها خالصة لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد

وعلى آله وصحبه أجمعين

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدّمة	٣
السبب الأول: معرفة الله جلّ وعلا	٧
السبب الثاني: تدَبُّر القرآن العظيم	٩
السبب الثالث: تذكُّر الموت	١٤
السبب الرابع: تذكُّر أهوالِ القيامةِ	٢٠
السبب الخامس: كثرةُ ذكرِ الله تعالى	٢٦
السبب السادس: مطالعةُ السّيرة النبَويّة وسِيَر العلماء والصالحين	٢٨
السبب السابع: حضور مجالس العِلم والذِّكر	٣٠
الخاتمة	٣٣
الفهرس	٣٥